فن الخطابة

 لأحمد محمد الحوفي

الدرس الحادي عشر

أنواع الخطابة؛ الخطابة السياسية

قسم أرسطو الخطابة ثلاثة أقسام؛ لأن العناصر المكونة لكل خطبة ثلاثة: الخطيب، والموضوع، والسامع، والغاية في الخطابة تتعلق بعنصرها الأخير -أي: السامع- ولأن المستمعين ثلاثة فالسامع إما أن يكون قاضيًا، وإما أن يكون مستمعًا عاديًا، كذلك القاضي إما أن يقضي فيما يتعلق بالماضي، أو فيما يتعلق بالمستقبل، فمَنْ يقضي في مسائل ماضية فهو القاضي، ومَنْ يقضي في مسائل آتية فهو عضو المجامع العامة، ومَنْ يحكم على مقدرة الخطيب فهو المستمع العادي، فأنواع الخطابة إذن ثلاثة: الخطابة الاستشارية أو الحملية، ثانيًا: الخطابة القضائية، ثالثًا: الخطابة الاستدلالية -أي: خطب المدح والذم- ولكلِّ نوعٍ منها اتجاه خاص.

أولًا: ففي الخطابة الاستشارية يتوجه الخطيب إلى السامعين بالنصيحة أو بالتحذير، والغاية من نصحه وتحذيره بيان النفع والضرر؛ لأن الناصح يعرض ما يتقدم به على أنه الأصلح، والمحذر يعرض ما يرى فيه الضرر كله، وما وراء النفع والضرر من شتى الاعتبارات كالعدل والظلم، والحسن والقبح مرده إلى هذين الغرضين.

ثانيًا: وفي الخطبة القضائية يتوجه الخطيب إلى الاتهام أو إلى الدفاع، ومهمة المتقاضين لا تخرج عن هذين؛ لأنهم يهدفون إلى العدل أو الجور، وعليهما يحمل كل ما يقال.

وثالثًا: في الخطبة الاستدلالية يتوجه الخطيب إلى المدح أو إلى الذم، وهدفه الحسن والقبح الخلقيان، وإليهما ترجع الأمور المتعلقة بهما. ونجد أن أرسطو قسم الخطابة إلى ثلاثة أقسام مراعيًا للزمن من الخطبة، وهي: أولًا: الاستشارية أو الحملية، وهي التي يُقصد بها إثبات شيء أو نفيه، وذلك بالاستشارات، وبمعادلة الآراء، وحمل السامعين على الاقتناع بما يدعو إليه الخطيب، أو الحمل على الخصيم بدحض رأيه وتفنيد حججه، ومنها الخطب البرلمانية، وهي تتناول شئون الدولة العامة من حربٍ وسِلمٍ وتشريع واقتصاد، والخطابة الاستشارية متعلقة بالزمن المستقبل؛ لأن الخطيب يريد حمل السامعين على فكرة أو إبعادهم عن فكرة كتأييد الحكومة أو لومها، وفرض ضريبة أو إلغائها، وهذا مرتبطٌ بالزمن المستقبل لا بالماضي.

ثانيًا: القضائية، وهي التي يدافع الخطيب عن مُتهمٍ ليبرئه بوسائل شتى بعضها معتمد على وقائع معينة، وبعضها مستنتج من أحداث، وبعضها يشرح الظروف التي أحاطت بالمتهم فحملته على الجريمة، ممّا يتلمسه المدافع عنه للاعتذار عنه وتبرير مسلكه، وهي متعلقة بالزمن الماضي؛ لأن موضوعها جريمة حدَثت، أو تهمة لصقت وانتهى زمنها. ثالثًا: الاستدلالية، وهي خطب المدح والذم لإنسانٍ أو شيء، وهي مبنية على الزمن الحاضر؛ لأن المادح أو الذام يتناول شخصًا أو شيئًا حاضرًا أمامه.

نأتي الآن إلى مناقشة هذا التقسيم الذي قسمه أرسطو، فنقول: ليس هذا التقسيم دقيقًا؛ لأن الزمن يتداخل بعضه في بعض، فمثلًا الخطابة الحملية وهي مبنية في نظر أرسطو على الزمن المستقبل كثيرًا مما تتناول الماضي والحاضر، والخطابة الاستدلالية وهي مؤسسة في رأيه على الزمن الحاضر كثيرًا ما تتعلق بالزمن الغابر، كأن يعرض الخطيب إلى حياة المُكرّم أو المؤبن ليستخلص منها وقائع تدل على العظة، ثم إن الخطيب الماهر من يتخذ هذا الضرب من الخطابة وسيلة لتحبيب البطولة إلى جميع المستمعين، وترغيبهم في الخير والحق، وهذا متعلق بالمستقبل، وكذلك الخطابة القضائية المرتبطة بالزمن الماضي في نظر أرسطو قد تنجر إلى المستقبل كالثقة بعدالة القضاة، والنُفرة من الجريمة، وكثيرًا ما تتداخل الأقسام كأن يلجأ المحامي وخطبته قضائية إلى الاعتماد على أمور سياسية، ويعتمد الخطيب السياسي على أمور قضائية. وقد أحس أرسطو نفسه أن الأقسام متداخلة، وقرر ذلك في قوله: "كذلك الذين يهدفون إلى المدح أو الذم لا يبحثون فيما إذا كان لا يصدر عن ممدوحهم أو مذمومهم يعود بالنفع أو بالضرر؛ لأن غايتهم الحسن والقبح، وكثيرًا ما يمجدونه ويثنون عليه؛ لأنه احتقر منفعة خاصة في سبيل الاستجابة لعمل من الأعمال الحسنة".

ثم إن تقسيم الخطابة على أساس الغاية منها غير صحيح أيضًا؛ لأن أرسطو يرى أن الغرض من الخطبة الاستشارية بيان النفع والضرر، ومن القضائية تقرير العدل ورفع الجور، ومن الاستدلالية معرفة الحسن والقبح، وهذه أغراض متداخلة، فإن العدل حسن، والجور قبيح، وفي الإشادة بفضائل المُكرّم نفعٌ للشعب كله، ودعوةٌ ضمنية إلى الاقتداء بالمثل العالية، وهكذا تتداخل الغايات من الخطب.

أما التقسيم الحديث، فهو تقسيم لا يبني فيه المُحدَثون تقسيم الخطابة على الزمن، ولا على الغرض من الخطبة كما فعل أرسطو؛ لأن الخطبة تستمد نوعها من ظروفها، ومن اتجاه الخطيب نفسه، فالخطبة التي تُلقى في المجامع في شأنٍ من شئون الدولة العامة خطبة سياسية، والتي تُلقى في المحاكم قضائية، والتي تُلقى في المجامع للتكريم أو التأبين هي خطبة المدح، فإذا كانت لإصلاح حال المجتمع فهي اجتماعية، على أن أرسطو أهمل نوعين آخرين من الخطابة هما: الخطابة الدينية، والخطابة الحربية، ولا نستطيع أن ندمج الخطابة الدينية أو الحربية في نوع من الأنواع الثلاثة السابقة إلا بتعسف؛ لأن لكلٍّ منها طابعًا خاصًا غير طابع الأنواع السابقة، وغرضًا خاصًا غير الأغراض السابقة. فالتقسيم الحديث للخطابة تقسيم طبيعي يستند إلى موضوع الخطبة، ويعتمد على توجيه الخطيب نفسه، وهي على هذا تنقسم إلى سياسية، وقضائية، وحربية، وحفلية، ودينية، على أن بعضها قد يتداخل، فمثلًا قد يخطب الخطيب في تكريم شخصٍ فيتناول مسائل سياسية، أو يخطب في ساحة القضاء فيتعرض لمسائل علمية، ولكن هذا لا يُخرِج الخطبة عن أن تُسمّى باسمها الأصيل، ولا يبعدها عن نوعها وطبيعتها.

ونأتي الآن إلى الحديث عن كل نوع من هذه الأنواع المتعددة للخطابة، فنتحدث عن الخطابة السياسية، ونبدأ بتعريفها فنقول: هي التي تدور حول الشئون العامة للدولة فتشمل الخطب التي تُلقى في البرلمان، وفي المجتمعات الانتخابية، والأندية الحزبية، والمؤتمرات الدولية السياسية، سواء تعلقت بأمور خارجية كالمعاهدات، والحرب، والسلام، أو بأمور داخلية كالتعليم، والاقتصاد، والزراعة، والتشريع، ونظام الحكم. ثم نأتي الآن للحديث عن عوامل ازدهارها، فنقول: هذا النوع من الخطابة يزدهر في الدولة الدستورية؛ لأنه وليد الحرية، وقد بدأ عند اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد؛ إذ كان الحكم جمهوريًّا للشعب فيه القيادة والتوجيه، فارتبطت السلطة الحاكمة برضا الشعب وتأييده، واعتمد طلاب الحكم على استرضاء الشعب وإقناعه، وكانت الخطابة وسيلتهم إلى ذلك، ثم ارتقت عند الرومان في الجمهورية الديمقراطية؛ إذ كانت شئون الدولة تناقش في حرية بمجلس الشيوخ وبالمجتمعات الشعبية، والحق أن الحياة السياسية عند اليونان والرومان كانت أعظم مشجع على ازدهار الخطابة السياسية؛ لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للاتصال بالشعب، ولأن المهن التي تشغل الناس في أيامنا هذه وتستنفد جهودهم كالصناعات والطب، كانت عند اليونان والرومان من أعمال الأرقاء، أما الأحرار فقد كان هدفهم الوصول إلى الوظائف العامة، والمشاركة في الحكم.

وفي العصر الحديث عظم شأن الخطابة في الحكومات الديمقراطية النيابية كانجلترا، وفرنسا، ومصر، والعصر الحديث عصر الخطابة السياسية لكثرة الأحزاب المختلفة في وسائلها وغاياتها، المعتمدة على الخطابة في إقناع الجماهير بصواب الحزب، وابتغائه الخير للأمة، وفي استمالتها إلى نصرة الحزب وتأييده، وفي تفنيد برامج الأحزاب الأخرى، وانتقاص أعمالها، ثم لقوة اتصال الأمم، فقد ألغت وسائل الاتصال المسافات، وربطت العالم ربطًا تنجم عنه مشكلات دولية ومؤتمرات لدراستها وحلها، والمؤتمرون يتسلحون بالخطابة وتأثيرها، ثم لانتشار الحكومات الديمقراطية والمجالس النيابية، وفيها يتصاول الخطباء، ثم ليقظة بعض الشعوب التي كانت في سُبات، وتطلعها إلى حياة راقية كريمة على أن الوعي القومي نضج عند بعض الأمم، وكاد ينضج في بعضها، وهذا من شأنه أن يوقظ الناس إلى حقوقهم فتزدهر الخطابة، وهذا النوع وثيق الصلة بالشعب؛ لأنه يتعلق بالشعب، والحكم فيه للشعب، فهو وصف القوة الوحيدة التي تسيّر القوم إلى الحرب أو تجنح بهم إلى السلم، والشعب لا يؤثر فيه غير الكلام.

أما عُدة الخطيب السياسي:

فأولًا: يجب عليه أن يدرس الموضوع دراسة استيعاب وتعمق، خصوصًا إذا خطب في البرلمان؛ لأن السامعين كلهم أو بعضهم على علم بالمسائل التي يخطب فيها، وقد يكون بعضهم أغزر من الخطيب علمًا، وعليه أن يكون إذن دارسًا للائحة المجلس الداخلية، ولشئون الدولة، ولنظام المجتمع.

ثانيًا: أن يدرس نفسية السامعين ليعرف المنافذ إلى مشاعرهم، والطريقة المُثلى لاستمالتهم وإقناعهم.

ثالثًا: أن يكون سريع الخاطر حاضر البديهة، قديرًا على الرد في مهارة ولباقة وإفحام، إذا فاجأه سامع بسؤال، أو معارضة، أو مقاطعة، قالت سيدة لخطيب من غير حزبها وهو مسترسل في الخطابة قالت له: لو كنت زوجي لسقيتك السُّم؛ فقال لها على البديهة: ولو كنت زوجتي لشربت السُّم من يدك راضيًا.

رابعًا: أن يكون حار العاطفة معتقدًا ما يقول ومقتنعًا به؛ لينقل حماسته إلى السامعين، فإن الكلام إذا صدر من القلب وصل إلى القلب.

خامسًا: أن يكون قديرًا على تنفيذ آراء خصمه بالأدلة، وأن يبتعد في تفنيده عن المسائل الشخصية، وينصرف إلى الموضوع نفسه فيبين ما في آرائه من الخير للأمة، وما في آراء خصمه من الضرر، وبهذه العُدة بَهَرَ مصطفى كامل، وسَحَرَ سعد زغلول، وأثر ميرابو ووليم بد، وهم جميعًا لا سلاح لهم أقوى تأثيرًا في النفوس من الكلام.

أما خصائص أسلوبها، فنقول:

أولًا: تعتمد على الخيال لإثارة العاطفة، فالخطيب في هذا النوع شاعرٌ حريصٌ على الاجتذاب والاختلاب بما يجلو من الصور، وبما يعقد من الموازنات، وبما يرسم من آمال، وهو شديد الحاجة إلى هذا في الحفلات الانتخابية ليهز سامعيه، ويستميلهم إلى جانبه، فهم -كما قال جوستاف لوبون- قلما تذكروا وعود الخطيب بعد نجاحه في الانتخابات، أو سائلوه عن البرنامج الإصلاحي الذي وعدهم به.

ثانيًا: تتنوع أساليبها الرائعة من شدةٍ إلى لينٍ، ومن جدٍّ إلى هزلٍ، ومن إخبارٍ إلى استفهامٍ، ومن تسليمٍ إلى إنكارٍ… إلى آخره.

ثالثًا: اللباقة في التعبير بحيث تؤدي الجملة ما يريد السياسي، فقد تكون صريحة لا التواء فيها، وقد تكون مبهمة كما في بعض التصريحات السياسية. رابعًا: الاستشهاد بنصوص القوانين والمعاهدات وتصريحات الساسة إذا عرض الخطيب لتصرف سياسي ذي صلة بالقانون، وكثيرًا ما يحدث هذا في البرلمان، وفي هيئة الأمم المتحدة، وفي مجلس الأمن، والاقتباس من مأثور الكلام الرائع ذي السلطان على النفوس كآية كريمة، أو حديث شريف، أو بيت طائر، أو مَثَلٍ سائر. ولنضرب مثالًا على هذه الخطابة السياسية، فنذكر منها: خطب الخلفاء حين توليتهم، والولاة والعمال حينما يُعهد إليهم بالولاية ليبينوا للناس سياستهم، أو يبشروهم بوعود، أو يسكنوا من ثورة ويخمدوا من فتنة، ولعل أول خطبة من هذا النوع هي خطبة أبي بكر بعد بيعته، التي قال فيها: "أيها الناس إني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإني رأيتموني على حقٍّ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطلٍ فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

الخطابة القضائية:

الخطابة القضائية: هي التي تلقى في المحاكم سواء كان الملقي ممثل النيابة أم المحامي عن المتهم، وهي قديمة العهد عند اليونان والرومان، وكانت لها أصول تغاير ما عندنا، أما غايتها والغرض منها فإن الغرض منها تمييز الحق من الباطل، والفصل في المنازعات، ومساعدة العدالة على القصاص من الجاني، وتبرئة المتهم البريء، وحماية المجتمع من الجريمة؛ ولذلك يجب أن يتعاون القاضي والنائب، والمحامي على إحقاق الحق ونصرة المظلوم، ومحاربة الجرائم، ومن الباطل أن يحترف بها بعض المحامين للاستغلال، وكسب المال، وذلك بتنجية المجرم الآثم بقوة البيان، وفصاحة المنطق، وذلاقة اللسان، وهم يعلمون أنه أثيم، ولكنهم يبتدعون الحيل لإفلاته بدعوى أنه لم يُجرِم على أنهم في حلِّ من أن يحاولوا تخفيف العقوبة ببيان دوافع الجريمة وظروفها وعللها. ولخطورة الخطابة القضائية نظر إليها القدماء نظرة فيه وجل وتردد، فمثلًا كان قدماء المصريين في بعض عصورهم يقيدون المرافعة بأن تكون مكتوبة، مخافة أن تتأثر العدالة بخلابة الخطابة، وتبين اليونان أثر مرافعاتهم فسنوا القوانين لمنع الخطباء من استخدام الوسائل المثيرة للوجدان، وبالغوا في ذلك حتى عينوا رجلًا يُقاطع المحامي أو يسكته إذا رآه يحاول إثارة العاطفة، أما الرومان فقد تركوا الدفاع حرًّا يقول ما يشاء ثقة بالقضاء، واعتمادًا على صراحة القانون ووضوحه، وهذا هو النظام المتبع في العالم اليوم، وإذا كان بعض القضاة يؤجلون الحكم مدة بعد سماع المرافعات، فإنما يفعلون ذلك ليدرسوا ويوازنوا أقوال الدفاع بأقوال الاتهام، وهم بنجوة من تأثير هؤلاء وهؤلاء.

الخطابة والمناظرات في العصر الأموي، لعثمان بن عباس آل فدا.

الخطابة الحفلية:

ضروب الخطابة في العصر الأموي:

…والضرب الثالث من الخطابة: هو الخطابة الحفلية، والمراد بالخطابة الحفلية: الخطب التي كانت تلقى في المحافل والمجالس والأسواق لغرض من الأغراض المتصلة بالحياة الاجتماعية كالمفاخرة، والتهنئة، والتعزية، والتكريم، والشكوى، وعقد النكاح، وإصلاح ذات البين، ونحو ذلك.

وقد حظيت هذه الخطب بقسط وفر من النماء والارتقاء في العصر الأموي لتوافر دواعيها، فكانت الوفود تقدم على الولاة والخلفاء، ويقوم خطباؤها فيلقون الخطب بين يدي الوالي والخليفة في الغرض الذي قدموا من أجله. وربما اجتمع في مجلس واحد خطباء من قبائل شتى فيجري بينهم التفاخر بقبائلهم والإشادة بمآثرها. وقد شهد العصر الأموي استعار نار العصبية القبلية على نحو لم تعرفه العصور السابقة وأدى استعارها إلى نمو الشعر القبلي واتساع نطاقه من جانب وإلى كثرة المفاخرات القبلية من جانب آخر، ولاسيما بين خطباء العدنانية والقحطانية.

ومما يلفت النظر في ذلك انتقال مراكز النشاط الأدبي من البوادي إلى الحواضر والأمصار المحدثة التي ازدحمت بأفواج المهاجرين إليها من شتى قبائل العرب، فأدى ذلك إلى وقوع المفاخرات بين خطباء تلك القبائل في تلك الحواضر فضلًا عما قام بين شعرائها من مناقضات.

وقد ظلت الخطابة الحفلية التي كانت معروفة من قبل قائمة في العصر الأموي كخطب الإملاق، وخطب إصلاح ذات البين، وخطب التعزية وغيرها.

خصائص الخطابة في العصر الأموي: كان الخطباء الأمويون يعنون بتجويد خطبهم وتحبيرها وتنميقها حتى تأتي في الصورة التي يرتضونها ولم يكونوا يرسلون الكلام عفوًا على البديهة -صنيع الجاهليين- وقد أثر عن البعيث الخطيب الشاعر قوله: "إنّي والله ما أرسل الكلام قضيبًا خشبيًا، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك".

وكان من ثمرة هذا التنقيح: أن جاءت خطب العصر الأموي منسقة الأفكار، مرتبة الأقسام، محكمة التسلسل. وتظهر هذه السمات على نحو جلي في خطبة زياد التي قالها يوم قدم البصرة.

وكان من خطباء العصر الأموي من تعمد محاكاة أهل البادية في جزالة أسلوبهم وبداوة ألفاظهم. ويظهر الطابع البدوي في خطب الحجاج خاصة. على أن أسلوب الخطابة الأموية كان يتفاوت بتفاوت أغراضها وموضوعاتها. وقد ظلت خصائص الخطابة التي وجدت في خطب صدر الإسلام قائمة في الخطب الأموية، ومن ذلك استهلال الخطبة بذكر اسم الله وحمده وإلا كانت بتراء وتوشيحها بآي من القرآن الكريم وإلا كانت شوهاء، وقد يتمثل الخطيب بشيء من الشعر أو الرجز.

وربما وقع السجع في طائفة من الخطب الأموية، ولكن الخطباء ما كانوا يسرفون في الإتيان به كراهية محاكاة سجع الكهان، وكان النبي وخلفاؤه يوصون الخطباء بتحامي هذا السجع.

وحين ظهرت الفرق الكلامية برزت الحاجة إلى تعليم أتباع كل فرقة أصول الخطابة، ووسائل الإقناع، وتدريبهم على محاجة خصومهم بالبراهين والأدلة العقلية، وظهر صدى ذلك في خطبهم ومناظراتهم من حيث خصب الأفكار وتنسيقها وعمقها، واستنادها إلى المنطق، وأصول الجدل.

وفي الوسع القول إن فن الخطابة لم يبلغ في أي عصر من العصور ما بلغه في العصر الأموي من النماء والنضج.

أعلام الخطباء في العصر الأموي: ظهر في العصر الأموي عدد وفر من الخطباء في شتى ضروب الخطابة، ومن اللافت للنظر في ذلك العصر ظهور جماعات من الخطباء تنتمي كل منها إلى أسرة واحدة. ومن هؤلاء آل رقبة الذين ينتمون إلى قبيلة عبد القيس الربعية، ومن الخطباء المشهورين في هذه الأسرة كرب بن رقبة وابنه مصقلة بن كرب، وهو أشهر خطباء هذه الأسرة، وكان أيام الحجاج. وقد ذكر الطبري أن الحجاج لما دخل الكوفة بعد هزيمة ابن الأشعث أجلس مصقلة بن كرب إلى جانبه وأمره أن يخطب فيشتم كل امرئ بما فيه. وكان ابنه كرب بن مصقلة خطيبًا مفوهًا كذلك، وكان له خطبة يقال لها "العجوز" كان آل رقبة يفاخرون بها.

ومن الأسر التي اشتهرت بالخطابة كذلك آل الأهتم من قبيلة تميم، وهي أعرق الأسر العربية في الفن الخطابي، وعرف منها في العصر الجاهلي والإسلامي عمرو بن الأهتم، وأخوه عبد الله بن الأهتم. وكان لعبد الله ولدان اشتهرا بالخطابة في عصر بني أمية هما: صفوان بن عبد الله بن الأهتم، وعبد الله بن عبد الله بن الأهتم. وقد ذكر أن عبد الله هذا دخل على عمر بن عبد العزيز فألقى بين يديه خطبة بليغة عرض فيها بأسلاف عمر من بني أمية.

وفي أواخر العصر الأموي ظهر من هذه الأسرة خطيبان أصابا شهرة بعيدة هما خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم، وشبيب بن شيبة بن عبد الله بن عبد الله بن الأهتم، وكان لهذين الخطيبين شأن كبير في العصر العباسي كذلك.

ومن الأسر القرشية التي كان لها حظ واف من الشهرة الخطابية عصرئذ آل العاص، وهم من بني أمية. ومن مشهوري خطباء هذه الأسرة سعيد بن العاص، وهو أشهر خطبائها. ومنها كذلك عمرو بن سعيد بن عمرو بن العاص المعروف بعمرو بن خولة -نسبة إلى أمه- وهو من الخطباء الذين فاخر بهم بنو أمية بني هاشم.

ومن الأسر التي اشتهرت بالخطابة الدينية في ذلك العصر أسرة فارسية الأصل تنتمي بالولاء إلى قبيلة رقاش البكرية، ومن هذه الأسرة يزيد بن أبان الرقاشي، وكان من القصاص المجيدين، وابن أخيه الفضل بن عيسى بن أبان القصاص. وكان عمرو بن عبيد يحضر مجلسه، ثم اشتهر بعدئذ ابنه عبد الصمد بن الفضل الرقاشي.

إلى جانب هذه الأسر الخطابية ظهر عدد جم من الخطباء المجيدين، وقد تقدم القول: إن كل حزب من الأحزاب السياسية كان يستظهر بطائفة من الخطباء للمنافحة عنه. وقد برز من الحزب الأموي خطباء من الأسرة الأموية أشهرهم معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد، وعبد الملك بن مروان، وسليمان بن عبد الملك، وعتبة بن أبي سفيان، وعمرو بن سعيد الأشدق.

وأشهر خطباء الحزب الأموي زياد بن أبي سفيان، والحجاج بن يوسف، وكلاهما من قبيلة ثقيف التي كانت تستوطن الطائف، وقد تجلى نبوغ زياد الخطابي منذ أيام عمر بن الخطاب، ودعاه عمر بالخطيب المصقع. وقد مهدت له براعته البيانية والحسابية وثقافته الطريق لتولي الإمارة أيام علي ومعاوية، فولاه علي فارس وكرمان، وبعد مقتل علي استماله معاوية إلى صفه واستحلفه بنسبه وولاه البصرة، وهي يومئذ تموج بالفتن والاضطراب، فاستطاع بحنكته السياسية وحزمه القضاء على الفتنة وحمل أهل البصرة على طاعة بني أمية وأشاع الأمن والاستقرار فيها. وما لبث معاوية أن ضم إليه الكوفة بعد وفاة واليها المغيرة بن شعبة، فكان أول من جمع له العراقان. ولما توفي سنة 53هـ كان الأمن والهدوء يعمان أرجاء العراق.

وقد سار الحجاج بن يوسف على خطا سلفه زياد، ولكنه كان أكثر ميلًا إلى البطش وسفك الدماء، وكان يضارع في البراعة الخطابية، وشهد له معاصروه بذلك فقال مالك بن دينار: "ما رأيت أحدًا أبين من الحجاج، وإن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى أقول في نفسي: لأحسبه صادقًا وإني لأظنهم ظالمين له".

ومن ولاة بني أمية الذين اشتهروا بالخطابة خالد بن عبد الله القسري وأخوه أسد، وروح بن زنباع، وعبد الله بن عامر، وبلال بن أبي بردة الأشعري، والمهلب بن أبي صفرة، وابنه يزيد، وقتيبة بن مسلم، ونصر بن سيار. وظهر من الخوارج كثرة من الخطباء المجيدين منهم قطري بن الفجاءة، وعبيدة بن هلال اليشكري، والمستورد بن علفة، وزيد بن جندب الإيادي، وقد أشاد الجاحظ بفصاحته وبراعته الخطابية، وعمران بن حطان شاعر الصفرية وخطيبهم، وصالح بن مسرح، وقد اشتهر بقصصه ووعظه لأصحابه، والضحاك بن قيس الشيباني. وأشهر خطباء الخوارج في ذلك العصر هو أبو حمزة الخارجي الإباضي، وقد انتهت إلينا طائفة من خطبه تنبئ بمهارته البيانية المتفوقة.

وبرز من رجال الحزب الشيعي عصرئذ الحسن والحسين ابنا علي -رضي الله عنهم-، وقد ورثا عن أبيهما البلاغة والمقدرة الخطابية. ومن خطباء الشيعة كذلك زيد بن علي، رأس الزيدية، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، وحفيده عبد الله بن معاوية بن عبد الله، ومنهم كذلك صعصعة بن صوحان، والمختار الثقفي، وسليمان بن صرد زعيم التوابين، وعبيد الله بن عبد الله المري. ومن خطباء الحزب الزبيري المبرزين عبد الله بن الزبير، وأخوه مصعب، وعثمان بن عروة بن الزبير، وأخوه عبد الله بن عروة، وكان هذا أبرع الزبيرية وكانوا يشبهونه في بلاغته بخالد بن صفوان.

وأشهر الخطباء الدينيين عصرئذ هو الحسن البصري، ولم يحظ أحد من رجال الدين بمثل المنزلة التي حظي بها الحسن في ذلك العصر، وعلى أنه كان من أصل غير عربي فقد أجاد الخطابة إجادة العرب الخلص؛ وذلك لأنه نشأ نشأة عربية بين مواليه الأنصار، حتى كانوا يشبهونه برؤبة بن العجاج، وشهد له أبو عمرو ابن العلاء بالفصاحة فقال: "لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج". وكان الحسن يعظ فيأسر القلوب ويسيل الدموع. وكانت حلقة «صاحب العمامة السوداء» أكثر حلقات المسجد ازدحامًا بالوافدين، وكانوا يشبهون كلامه بكلام الأنبياء، ولما توفي سنة 110هـ، كانت وفاته حدثًا عظيمًا في تاريخ البصرة، وقد مشى أهلها جميعًا في جنازته، واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر في الجامع.

ومن فصحاء أهل الكلام وخطبائهم واصل ابن عطاء، شيخ المعتزلة، وقد بلغ من مقدرته الخطابية أنه خطب خطبة كاملة تجنب فيها حرف الراء لئلا تظهر لثغته. ومن خطباء الوعظ سحبان بن زفر الوائلي الذي ضرب المثل ببلاغته، وقد رووا أنه خطب عند معاوية ذات يوم من صلاة الظهر حتى صلاة العصر. ومنهم كذلك عمر بن عبد العزيز الذي كان يكثر من وعظ الرعية، ومنهم الأوزاعي، وإياس بن معاوية، وجامع المحاربي، وصالح المري القاص.

ومن أشهر خطباء المحافل في ذلك العصر الأحنف بن قيس سيد بني تميم، والبعيث المجاشعي، والنخار بن أوس العذري، وصعصعة بن صوحان.

الخطابة الحفلية:

موضوعها: هي الخطب التي تُلقى في المحافل لتكريم أو تأبين، أو في تهنئة بنعمة خاصة أو عامة، أو في علاج مشكلة اجتماعية، وهذا النوع يكاد يكون موقوفًا سماعه على الخاصة وأنصاف المثقفين، فقلما يسمعه العامة؛ ولهذا رأى "شيشرون" أنه أصعب الأنواع كلها؛ لأن السامعين من الطبقة الممتازة، فلا يستطيع الخطيب أن يلقي الكلام بغير تروية فيه وتجويد.

أما خصائصها: فأولًا: يحسن أن تكون في جملتها واضحة الأفكار، سهلة التعبير، طلية رقيقة معتمدة على الوسائل الخطابية وبعض المنطق، ولا تكفي الوسائل الخطابية وحدها؛ لأن الخطبة ستنشر وتقرأ، ولا تجزي الأدلة المنطقية؛ لأن هذا النوع في حاجة إلى فن الأدب، والفكاهة الحلوة، والأسلوب الرشيق.

ثانيًا: على الخطيب أن يصدق في قوله، فلا ينسب للمُكرّم أو المؤبن محامد ليست من حُلاه، وأن يقتصد في ثنائه، فلا يكيل المدح جزافًا، وأن يتخذ خطبته وسيلة لتوجيه السامعين إلى التحلي بصفات النُبل التي من أجلها يُكرم المحتفل به، أو يؤبن المتوفى.

ثالثًا: وأمام الخطباء ثلاثة طرقٍ في منهج التكريم والتأبين: أن يذكروا تاريخ المحتفل به، وما بر به من أحداث منذ صغره، ويشفعوا ذلك بملاحظاتهم، وتعليقهم على بعض مواقفه، أو أن يدرسوا قيمة المحتفل به، وأثره في أمته ومميزاته، وقد يجمعون بين الطريقتين إذا انفسح لهم الزمن، ولكن المنهج الحديث أن يتركوا تفاصيل تاريخ الحياة إلى الجرائد والمجلات؛ لأن سردها ممل لا يستثير العواطف، فالخطيب الآن تدور خطبته حول بيان نواحي العظمة في المحتفل به وصفاته التي تميزه، ومكانته في التاريخ بين أمثاله، والدروس التي تستفيدها الأمة من عظمته، وذلك يحتاج إلى مهارة في تحليل الشخصية، ولباقة في الموازنة بين المزايا والعيوب، وتقدير المحتفل به تقديرًا عامًّا.

والخطابة الحفلية أنواع:

أولًا: خطبة التكريم، والمديح:

وهي التي تقال ثناء على عظيم أو ذي فضل، ومهمة الخطيب أن يبرز سمات عظمة المكرم وفضله، والفضائل أنواع شتى، منها: العدالة، والشجاعة، والمروءة، والعفة، والسخاء، والعظمة، والتسامح، وصدق الحس، والحكمة، وكبريات الفضائل ما كانت أكثر نفعًا للناس؛ لأن الفضيلة هي القوة التي تستطيع أن تُمدنا بخيرات كثيرة؛ ولذلك تعلو العدالة والشجاعة سائر الفضائل؛ لأن العدالة تؤثر تأثيرًا كبيرًا في وقت الحرب، ويأتي بعد هاتين الفضيلتين الكرم؛ لأن الكرماء يعطون بلا حساب، ولا يفكرون في موارد الثورة، ولا يجادلون فيها غيرهم، بينما يريد غيرهم المزيد منها، وقد عَرّفَ أرسطو كل فضيلة من هذه الفضائل، وليس من الصعب أن يفهم الإنسان ما وراء هذه الفضائل، فمن الواضح أن كل ما ينشأ عن الفضيلة جميل، ثم يتعمق الخطيب في نظرته إلى الجميل من الأعمال فيقرر أن الأشياء التي يكافأ عليها بالكرامة وحدها خيرٌ مما يجازى عليه بالمال، وأن كل ما عُمِلَ بدافع من الإخلاص المجرد عن المنفعة الشخصية جميلٌ يستحق المدح، والأشياء التي تُقدم لخير الوطن في غير رعاية للمصلحة الذاتية جميلة، والأشياء المفيدة بطبيعته وليست مفيدة لمن قام بها جميلة؛ إذ لو كانت مفيدة له لعُدّ مدفوعًا إليها بدافع من الدوافع الذاتية، وعلى الخطيب المُكرم أن يظهر ممدوحة مختارًا لما قام به من جلائل الأعمال مريدًا لها، وأنه كثيرًا ما قام بأمثالها.

وخطبة المدح في حاجة إلى إطناب، وتفصيل كأن يذكر الخطيب أن الممدوح أول من قام بهذا العمل الجليل، أو فكر في هذا الصنيع، أو أنه الوحيد الذي قام به، أو أن قليلًا من الناس عملوا مثل ما عمل، أو أنه تفوق على من أشبهوه في عمله، وكذلك يوضح الظروف والمُلابسات التي أحاطت بالعمل الجليل الذي قام به المكرم، والإطناب مستحبٌ في خطب التكريم؛ لأن التكريم يتناول الإشادة بفضائل يشترك الناس في تقديرها من الوجهة الخلقية، فليس أمام الخطيب إلا أن يفصّلها ويجملها، ويطنب في تحلية المُكرّم بها، وليس من المستحب أن يتعرض الخطيب لشيءٍ آخر غير الفضائل كثراء المكرم، أو مآثر آبائه، إلا تبعًا لمميزاته الخلقية والنفسية، كأن يثبت عراقة نسبه ليؤكد أن عظمته تتمشى في أصوله، وأنه نَبَتَ في تربة مخصبة، أو عاش في جوٍّ يُنمي العظمة ويغذيها، ثم يعرض لصفاته المكتسبة، وقد يتعرض الخطيب للبيئة التي وُلِدَ فيها المكرم فيعرج على الحالة السياسية والدينية والاجتماعية والفكرية التي عاصرت مولده ونشأته.

أما النوع الثاني من الخطب الحفلية: خطبة التأبين:

وهي الخطبة التي تلقى على قبر الراحل العظيم أو المتوفى العزيز، أو في حفل تأبينه، أو في ذكرى وفاته، فيبين الخطيبة عظم الفجيعة فيه، ويعدد مناقبه، ويجلي آثاره، ويواسي آله وأحبابه، وقد عرفها اليونان منذ زمن قديم، وذكرها المؤرخ الكبير "توسيديد" في القرن الرابع قبل الميلاد، وكانوا يلقونها في محافل رسمية لتأبين شهداء الوطنية، وكذلك مارسها الرومان، ووردت منها نصوصٌ منذ القرن السادس قبل الميلاد، والمتبع أن يبدأ الخطيب خطبته بتصوير الفاجعة والأسى والحسرة، كما قال عبد الخالق ثروت في تأبين سعد زغلول قال: "أيها السادة في هذا الحشد الذي يريد كل فردٍ فيه أن يؤدي حقَّ فقيدنا العظيم عليه وعلى البلاد، إما باللوعة الصامتة والذكرى الباقية، وإما بالزفرات يرسلها كلمات، وبحياة الفقيد يحملها مناقب وعظات أردت أن يكون لي نصيب في الوداع الناطق للراحل الكريم، ولكن سعدًا ليس كغيره من الرجال، فلكل عظيم ناحية من العظمة، ولسعد منها نواح متعددة، والعظيم يملأ فراغًا في جانب من الحياة، وسعد قد شغل الحياة المصرية عامة، فقد اجتمع فيه تاريخ مصر الحديث، وانتهت إليه نهضتها الكبرى، فلا غرو إذا جلت مصيبتنا في فقده، وكثرت وجوه القول، وتعددت شعاب الذكرى فيه" ثم يعرض تاريخ الفقيد، ويشيد بما كان له من جهادٍ، أو إصلاحٍ، أو نُبلٍ، أو يحلل شخصيته ويبرز نواحي عظمته، ويضرب الأمثال من تاريخه وحوادثه، ثم يشارك الخطيب آل الفقيد في فجيعتهم ويعزيهم ويواسيهم، بأن عظمة الفقيد باقية فيهم وأن منهم خلفاء له، ثم يوجه السامعين بلباقة إلى الاقتداء بالفقيد. وقد يختم الخطيب بكلمة يتوجه بها إلى روح الفقيد يدعو له بالثواب، ويطمئنه على أن من خلفوه حريصون على تعاليمه، قوامون على رعاية ما كان يرعى، ومن ذلك مناجاة عبد الخالق ثروت لسعد زغلول في خطبة تأبينه بقوله: نم هادئًا مطمئنًا، فإن البذر الذي بذرته من خِلالٍ حسنة، ودعوة صالحة سيؤتي ثمره -إن شاء الله تعالى.

البيان الزاهر إلى فرسان المنابر، لعبد الرحمن الأحمد.

3-الخطابة الحفلية:

موضوعها:

هي الخطب التي تُلقى في المحافل لتكريم أو تأبين، أو في تهنئة بنعمة خاصة أو عامة، أو في علاج مشكلة اجتماعية.

وهذا النوع يكاد يكون موقوفًا سماعه على الخاصة وأنصاف المثقفين، فقلما يسمعه العامة، ولهذا رأى شيشرون أنه أصعب الأنواع كلها، لأن السامعين من الطبقة الممتازة، فلا يستطيع الخطيب أن يلقي الكلام بغير تروية فيه وتجويد.

خصائصها:

1- يحسن أن تكون في جملتها واضحة الأفكار، سهلة التعبير، طلية رقيقة معتمدة على الوسائل الخطابية وبعض المنطق، ولا تكفي الوسائل الخطابية وحدها لأن الخطبة ستنشر وتُقرأ، ولا تجزي الأدلة المنطقية؛ لأن هذا النوع بحاجة إلى فن الأدب والفكاهة الحلوة، والأسلوب الرشيق.

2- وعلى الخطيب أن يَصدُق في قوله، فلا ينسب للمكرَّم أو المؤبَّن محامد ليست من حُلاه، وان يقتصد في ثنائه، فلا يكيل المدح جزافًا، وان يتخذ خطبته وسيلة لتوجيه السامعين إلى التحلي بصفات النبل التي من أجلها يُكرَّم المُحتفَل به، أو يُؤبَّن المتوفّى.

3- وأمام الخطباء ثلاثة طرق في منهج التكريم والتأبين: أن يذكروا تاريخ المحتفل به، وما مر به من أحداث منذ صغره، ويشفعوا ذلك بملاحظاتهم، وتعليقهم على بعض مواقفه، أو أن يدرسوا قيمة المحتفل به وأثره في أمته ومميزاته، وقد يجمعون بين الطريقتين إذا انفسح لهم الزمن.

ولكن المنهج الحديث أن يتركوا تفاصيل تاريخ الحياة إلى الجرائد والمجلات؛ لأن سردها مُمِلّ لا يستثير العواطف، فالخطيب الآن تدور خطبته حول بيان نواحي العظمة في المحتفل به، وصفاته التي ميزته، ومكانته في التاريخ بين أمثاله، والدروس التي تستفيدها الأمة من عظمته، وذلك يحتاج إلى مهارة في تحليل الشخصية، ولباقة في الموازنة بين المزايا والعيوب، وتقدير المحتفل به تقديرًا عامًا.

والخطابة الحفلية أنواع:

(1)- خطبة التكريم والمديح:

هي التي تُقال ثناء على عظيم أو ذي فضل.

ومهمة الخطيب أن يبرز سمات عظمة المكرم وفضله.

1- والفضائل أنواع شتى، منها العدالة والشجاعة والمروءة والعفة والسخاء والعظمة والتسامح وصِدق الحسِّ والحكمة.

وكبريات الفضائل ما كانت أكثر نفعًا للناس؛ لأن الفضيلة هي القوة التي تستطيع أن تمدنا بخيرات كثيرة، ولذلك تعلو العدالة والشجاعة سائر الفضائل، لأن العدالة تؤثر تأثيرًا كبيرًا في وقت الحرب، ويأتي بعد هاتين الفضيلتين الكرم، لأن الكرماء يعطون بلا حساب، ولا يفكرون في مورد الثروة، ولا يجادلون فيها غيرهم، بينما يريد غيرهم المزيد منها.

وقد عرف أرسطو كل فضيلة من هذه الفضائل ثم قال: وليس من الصعب أن يفهم الإنسان ما وراء هذه الفضائل، فمن الواضح أن كل ما ينشأ عن الفضيلة جميل.

2- ثم يتعمق الخطيب في نظرته إلى الجميل من الأعمال, فيقرر أن الأشياء التي يكافأ عليها بالكرامة وحدها خير مما يجازى عليها بالمال, وأن كل ما عُمِل بدافع من الإخلاص المجرد عن المنفعة الشخصية جميل يستحق المدح, والأشياء التي تقدم لخير الوطن في غير رعاية للمصلحة الذاتية جميلة, والأشياء المفيدة بطبيعتها وليست مفيدة لمن قام بها جميلة, إذ لو كانت مفيدة لعُدّ مدفوعًا إليها بدافع من الدوافع الذاتية.

وجميل أيضًا كل ما يمكن أن يفيد ميتًا ولا يفيد حيًّا, لأن ما يعمل للمنفعة الذاتية يرتفق به حي لا ميت.

وكذلك كل الأعمال التي تعمل لمنفعة الغير, لأن المنفعة الذاتية هنا في المرتبة الثانية.

3- وقد ينبغي في أدلة المدح والذم ألا يقتصر الخطيب على ما يتفق تمام الاتفاق مع الصفات الحقيقية, بل يعالج أيضًا ما هو قريب منها من فضائل تنشأ عنها أفعال النقيصة, ومن نقائض تنشأ عنها أفعال الفضيلة.

4- وعلى الخطيب المكرّم أن يظهر ممدوحه مختارًا لما قام به من جلائل الأعمال, مريدًا لها, وأنه كثيرًا ما قام بأمثالها.

5- خطبة المدح في حاجة إلى إطناب وتفصيل, كأن يذكر الخطيب أن الممدوح أول من قام بهذا العمل الجليل، أو فكر في هذا الصنيع, أو أنه الوحيد الذي قام به, أو أن قليلًا من الناس عملوا مثل ما عمل, أو أنه تفوق على من أشبهوه في عمله.

وكذلك يوضح الظروف والملابسات التي أحاطت بالعمل الجليل الذي قام به المكرّم.

والإطناب مستحب في خطب التكريم؛ لأن التكريم يتناول الإشادة بفضائل يشترك الناس في تقديرها من الوجهة الخلقية, فليس أمام الخطيب إلا أن يفصلها ويجمّلها ويطنب في تحلية المكرّم بها.

6- وليس من المستحب أن يتعرض الخطيب لشيء آخر غير الفضائل, كثراء المكرّم, أو مآثر آبائه, إلا تبعًا لمميزاته الخلقية والنفسية, كأن يثبت عراقة نسبه, ليؤكد أن عظمته تتمشى في أصوله, وأنه نَبَت في تربة مخصبة, أو عاش في جو ينمي العظمة ويغذيها, ثم يعرض لصفاته المكتسبة.

7- ولقد يتعرض الخطيب للبيئة التي ولد فيها المكرّم فيمر على الحالة السياسية والدينية والاجتماعية والفكرية التي عاصرت مولده ونشأته, ثم يبق تأثيره فيها من حيث تغييره هبوطها إلى رفعة, وضلالها إلى هدى, وتأخرها إلى تقدم, أو من حيث تأثره بها إن كانت صالحة, وتقدمه بها إلى استكمال الصلح.

ولا بد للخطيب من مراعاة السامعين فيما يعرض من مدح, فيمدح المكرّم أمام من يحبه, كما قال سقراط: "من السهل أن نمدح الأثينيين في أثينا", ويمدحه بما يعرفه قومه عنه: وإن كانت معرفة إجمالية.

أمثلة:

1- عرف عرب الجاهلية نوعًا من الخطب, موضوعها المباهاة في الجمع الحاشد بعراقة الحسب, ونبالة الأصل, وعلو المكانة, وشرف الأخلاق, وهذه هي المفاخرة أو المنافرة.

وليس من المستطاع الاطمئنان إلى ما ورد من نصوصها الجاهلية, لأنها من النثر الذي لا يطمئن الباحث إلى صحته كما يطمئن إلى الشعر, ولأن ما بقي من هذه المنافرات موسوم بلغة متأنقة مسجوعة ليست مما يقال عفو الخاطر.

من ذلك منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن عُلاثة إذ تنازعا في الرياسة، فقال علقمة لعامر: أنا خير منك أثرًا، وأحدّ منك بصرًا، وأعزّ منك نفرًا، وأشرف منك ذكرًا، وقال عامر: إني أسمى منك سِمةً، وأطول منك قامة، وأحسن منك لِمّة، وأجمد منك جُمّة، وأسرع منك رحمة، وأبعد منك همّة.

وشتان ما بين هذه العبارات وما ورد من منافرة بني تميم للنبي -صلى الله عليه وسلم.

2- فقد وفد بنو تميم على النبي -صلى الله عليه وسلم- لينافروه، فقالوا: جئنا لنفاخرك، ثم قام خطيبهم فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل وهو أهله، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعزّ أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عُدّة، فمن مثلنا في الناس؟ فمن يفاخرنا فليعدد مثل ما عدَدنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نستحيي من الإكثار فيما أعطانا، وإنا نُعْرف بذلك.

أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا، وأمرٍ أفضل من أمرنا. فأمر النبي ثابت بن قيس بأن يرد عليه فقال:

"الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه ولم يكن شيء قط إلا من فعله؛ ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا واصطفى من خير خلقه رسولًا، أكرمه نسبًا، وأصدقه حديثًا وأفضله حسبًا، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه؛ وكان خيرة من العالمين؛ ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحسابًا، وأحسنهم وجوهًا، وخير الناس فعالًا؛ ثم كان أول الخلق إجابة، واستجاب لله حين دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن فنحن أنصار الله، ووزراء رسول الله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله متع بماله ودمه، ومن كفر جاهدناه في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا؛ أقول هذا وأستغفر الله لي وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم".

ولقد أبطل الإسلام كثيرًا من عادات الجاهلية، وسوّى بين الناس جميعًا وآخى بينهم، وأنكر العصبية الجاهلية، فتوارت المفاخرة حينًا، ثم عادت في العصر الأموي في قالب من الحوار.

3- ومنها خطب الوفود التي وفدت على سيف بن ذي يزن لتهنئته بطرد الحبش من اليمن، والوفود التي قدمت إلى النبي تعلن إسلامها، والتي جاءت إلى الخلفاء الراشدين، ومَن بعدهم لتعلن تأييدها، أو تجهر بشكواها.

ومنها خطب الزواج التي كان يلقيها أهل الخاطب في أهل الفتاة، يشيدون بمكانة أنفسهم، ويعرضون على أهل الفتاة رغبتهم في الإصهار إليهم، ويحددون المهر، ويذكرون من محامد العروس ما يكافئ مكانة المخطوب إليهم.

وكثيرًا ما كان أهل الفتاة يردون عليهم، مرحبين بهم، ومفتخرين بأقدارهم.

وإذا كان مجال هذا النوع ضيقًا، وكانت العواطف فيه هادئة، والأفكار التي يعرض لها الخطيب محدودة، استحسنوا أن يخطب فيه الخطيب قاعدًا لا قائمًا، وشعر كثير منهم بأنه شاق على النفس، ولذلك قال عمر بن الخطاب: "ما يتصَعَّدني كلام كما تتصعدني خطبة النكاح".

ومن أمثلة هذا النوع خطبة أبي طالب في زواج النبي بالسيدة خديجة، كقوله: "الحمد لله الذي جعلنا من زرع إبراهيم، ومن ذرية إسماعيل، وجعل لنا بيتًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكّام على الناس في محلّنا الذي نحن فيه؛ ثم إن ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لا يوزن برجل من قريش إلا رجح به، ولا يقاس به شيء إلا عَظُم عنده، وإنه وإن كان في المال قُلّ فإن المال بعدُ رزقٌ جارٍ، وله في خديجة رغبة، ولها فيه مثل تلك، وما أحببتم من الصداق فعليّ".

4- وفد جماعة من قريش على سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الحبش وإجلائهم من اليمن فخطب عبد المطلب قائلًا: "إن الله تعالى أيها الملك أحلك محلًا رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعزت جُرثومته، ونبل أصله، وبَسق فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت رأس العرب، وربيعها الذي به تُخصب، وملكها الذي به تَنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومَعْقِلها الذي إليه يلجأ العباد؛ سلفك خيرُ سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف؛ ولن يَهلك من أنت خلَفه.

نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشْخَصنا إليك الذي أنهجك لكشفك، الكَرْب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفود المَرْزِئة.

فمدح الملك بالرفعة والمتعة، وبطيب المنبت وعراقة الأصل، ثم مدحه بأنه سيد العرب وموئلها ومعقلها، وبأنه خير سلف، ثم بيّن أنهم قد وفدوا للتهنئة لا لنيل العطاء.

خطبة التأبين:

هي الخطبة التي تُلقى على قبر الرجل العظيم أو المتوفى العزيز، أو في حفل تأبينه، أو في ذكرى وفاته.

فيبين الخطيب عظم الفجيعة فيه، ويعدد مناقبه، ويجلي آثاره، ويواسي آله وأحبابه.

وقد عرفها اليونان منذ زمن قديم، وذكرها المؤرخ الكبير توسيديد في القرن الرابع قبل الميلاد، وكانوا يلقونها في محافل رسمية لتأبين شهداء الوطنية.

وكذلك مارسها الرومان، ووردت منها نصوص منذ القرن السادس قبل الميلاد.

1- والمتبع أن يبدأ الخطيب خطبته بتصوير الفاجعة والأسى والحسرة، كما قال عبد الخالق ثروت في تأبين سعد زغلول:

أيها السادة:

في هذا الجمع الحاشد الذي يريد كل فرد فيه أن يؤدي حق فقيدنا العظيم عليه وعلى البلاد، إما باللوعة الصامتة والذكرى الباقية، وإما بالزفرات يرسلها كلمات، وبحياة الفقيد يحملها مناقب وعظات، أردت أن يكون لي نصيب في الوداع الناطق للراحل الكريم.

ولكن سعدًا ليس كغيره من الرجال، فلكل عظيم ناحية من العظمة، ولسعد منها نواحٍ متعددة، والعظيم يملأ فراغًا في جانب من الحياة، وسعد قد شغل الحياة المصرية عامة، فقد اجتمع فيه تاريخ مصر الحديث، وانتهت إليه نهضتها الكبرى، فلا غرو إذا جَلَّت مصيبتنا في فقده، وكثرت وجوه القول، وتعددت شعاب الذكرى فيه…".

2- ثم يعرض تاريخ الفقيد، ويشيد بما كان له من جهاد أو إصلاح أو نبل، أو يحلل شخصيته، ويبرز نواحي عظمته، ويضرب الأمثال من تاريخه وحوادثه.

ومن خطبة شاب في تأبين المرحوم الأستاذ أبو الفتح الفقي رئيس جماعة دار العلوم ووكيل كلية دار العلوم: يا أبا الفتح لم أذق مرارة الفقد إلا يوم موتك، ولم أرهب الموت إلا يوم خطفك، ولن أنسى تشييعك في القاهرة، وحرارة توديعك في الدلجمون وفجيعة إيداعك في المقبرة… فقد بكاك يا أبا الفتح كل من شيعوا، وتفجع عليك من عِليَةِ القوم من ودَّعُوا، ومن حِيلَ بينهم وبين أن يودعوا، وبسرتْ لموتك وجوه كانت دائمة مشرقة، وحزنت قلوب كانت دائمًا مستبشرة، ونسي في جنازتك الشيخ وقاره، فبكى بكاء مرًّا، وعصى الصبور صبره، فذرف الدمع سخيًا حارًا، واختلط جئير النائحين بلوعة النائحات.

يا أبا الفتح هناك جثمانك الطاهر، وهنا ذكرك العاطر، وطيفك

الزائر، وصدى صوتك الرنان الآسر.

وسيبقى دائمًا ذكرك وطيفك وصوتك ما بقي في الدنيا وفاء، وما دام في الناس اعتزاز بالفضيلة، وتقدير للرجولة، وإيمان بالعظمة، والسلام عليك في علاك".

3- ثم يشارك الخطيب آل الفقيد في فجيعتهم ويعزيهم، ويواسيهم بأن عظمة الفقيد باقية فيهم، وأن منهم خلفاء له.

4- ثم يوجه للسامعين بلباقة إلى الاقتداء بالفقيد.

من ذلك قول ثروت في ختام تأبينه لسعد:

"إن حزننا على فقيدنا عظيم، ولكن يجب ألا يكون عقيمًا، وخير ما يلد هذا الحزن هو حُسُنُ التأسي، فلنتأسَّ بسعد في جهاده للحق، وصبره على المكاره، ودعوته إلى ضم الصفوف، وإيثار المصلحة العامة.

وإني لأعلم أني لا أنبه غافلًا، ولا أوقظ نائمًا، فإن سيرتكم منذ مات سعد ناطقة بأن روحه لا تزال معكم، ولا أشك أنكم لن تزالوا سالكي هذا الطريق في توفيق من الله، وتأييد من صاحب العرش، وأوقن أنه ليس شيء أحب إلى سعد في قبره من أن تثابروا على المضي في هذا الطريق الحكيم، حتى نبلغ غايتنا جميعًا".

5- وقد يختم الخطبة بكلمة يتوجه بها إلى روح الفقيد، يدعو له بالثواب، ويطمئنه على أن من خلفوه حريصون على تعاليمه، قوامون على رعاية ما كان يرعى.

من ذلك مناجاة لسان الدين بن الخطيب للمتوفى بأن ابنه سيخلفه: "لَيْهنكَ أن صيَّر الله تعالى ملكك من بعدك إلى نيِّرِ سعدك، وبارق وعدك، ومنجز عهدك، أرضى ولدِك، وريحَانَةَ خلدِك، وشقَّةُ نفسك، والسرحة المباركة من غرسك، ونور شمسك، ومُوصل عملك من البرّ إلى رمسك".

ومناجاة ثروت لسعد زغلول في خطبة تأبينه بقوله. "نم هادئًا